التحليل البلاغي للتعبير القرآنى في حديثه عن ماء الدنيا

A Rhetorical Analysis of Qur'anic Expressions Regarding the Water of This World

Syed Afzaal Hussain Shah

PhD Scholar, & Vissiting Faculty member in Faculty of Arabic Language & Literature, International Islamic University Islamabad. Pakistan,
Adjunct Faculty Member in Pak-Austria Fachhochschule: Institute Of Applied Sciences And Technology, Mang, Haripur, Pakistan.
Email: safzalsha@gmail.com

Professor Dr. Fazlullah

Dean Faculty of Arabic Language & Literature, International Islamic University Islamabad. Pakistan
Email: drfazlullah@iiu.edu.pk

Abstract:

Water is one of the most frequently mentioned elements in the Qur'an and serves as a powerful symbol of life, mercy, purification, and divine power. The Qur'anic discourse on water does not merely describe its physical attributes or natural phenomena, but it also embeds deep rhetorical, metaphorical, and theological meanings. This research seeks to explore how the Qur'anic language utilizes rhetorical devices (balāgha) to present the concept of *"mā' al-dunyā"* (the water of this world) with layered meanings—both literal and symbolic.

Understanding the rhetorical expression of water in the Qur'an is not only vital to grasping the beauty and depth of divine speech but also offers ethical and spiritual insights into man's relationship with nature, sustenance, and divine order. In today's context of ecological crisis and spiritual confusion, revisiting the Qur'anic narrative through the lens of balāgha provides both aesthetic appreciation and moral reflection.

1. What rhetorical devices does the Qur'an employ in describing water (*mā' al-dunyā*)?
2. How do Qur'anic expressions about water contribute to the broader thematic structure of verses?
3. What spiritual, ethical, or symbolic meanings are conveyed through these expressions?
4. How does the Qur'an balance between the literal and metaphoric use of water?

Objectives of the Study

- To analyze the rhetorical features of Qur'anic expressions related to water.
- To explore the multi-dimensional symbolism of water in the Qur'an.
- To identify key balāgha tools such as metaphor (*istiʿāra*), simile (*tashbīh*), emphasis (*ta'kīd*), and contrast (*muqābala*) used in such verses.
- To contribute to Qur'anic stylistic studies by focusing on environmental and metaphysical themes.

This research adopts a **qualitative, descriptive, and analytical method**. It uses:

- Textual analysis of selected Qur'anic verses mentioning water.
- Balāgha-based framework from classical Arabic rhetoric to identify and explain rhetorical features.

- Thematic categorization of meanings—literal, ethical, symbolic, eschatological—derived from Qur'anic discourse.
The study draws upon works of classical commentators like al-Zamakhsharī, al-Rāghib al-Asfahānī, and modern scholars of Qur'anic balāgha.

Keywords : Water –Metaphor – Divine Discourse – Environmental Ethics – Symbolism – Qur'anic Imagery

الحمد لله رب العالمين الصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين أما بعد!

قد ذكر القرآن الكريم الماء فى الأمثلة المختلفة لكونه ذا أهمية بالغة ولكون الأمثال مؤثرة في نفوس الإنسانية. كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْـرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُم يَتَفَكَّرُوْنَ﴾.([1]) وقال الإمام السـيوطى وللمثل فوائد كثيرة منها: "التذكير، والوعظ، والحث، والزجر، والاعتبار، والتقرير، وتقريب المواد للعقل وتصويره بصورة المحسوس، فإن الأمثال تصور المعاني بصورة الأشخاص؛ لأنها أثبت في الأذهان لاستعانة الذهن فيها بالحواس، ومن ثم كان الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي، والغائب بالشاهد، وتأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر، وعلى المدح والذم، وعلى الثواب والعقاب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر أو إبطاله".([2]) كما أن للأمثال أهمية بالغة للفهم وقد أشار القرآن الكريم إليه قائلًا: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْـرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾([3]) وقال الإمام ابن القيم. "وكان بعض السلف يبكي إذا قرأ مثلًا ولم يفهمه ويقول: لست من العالمين".([4])

الآية:﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ٢٤﴾(**5**)

مفهوم الآية: ذكرالله سبحانه وتعالى هذا المثل العجيب المتفرد من نوعه للبغاة في الأرض والمغترين الذين يفضّلون الحياة الدنيا ويعرضون إعراضا عن حياة الآخرة والأعمال التي تتعلق بالآخرة، ويوجد في الناس من هذا القبيل أشد انهماكا في الحياة الدنيا وزينتها ومثّل ذلك سبحانه وتعالى وقدم لهم حقيقة حياة الدنيا في هذه الآية.

التحليل البلاغي:

---

1 - الحشر: 21.

2 - الإتقان في علوم القرآن، الإمام جلال الدين السيوطي: مراجعة وتدقيق: سعيد المندوه – الطبعة الأولى 1996- دار الفكر – بيروت. ص: 343-4/344.

3 - العنكبوت:43.

4 - الأمثال في القرآن الكريم، ابن القيم: شمس الدين محمد بن أبي بكر، دار المعرفة للطباعة والنشر – بيروت – لبنان. ص 131.

5- يونس: 24.

سأحاول أن أسلط الأضواء على أهم مواطن الجمال البلاغي للآية الكريمة خلال استخدامها لمادة الماء مع مراعاة بلاغة النظم القرآني. إن هذه الآية بيان ما قبلها من الآية {مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}([6]) وكلام مستأنف قد ذكر الله سبحانه وتعالى فيها سرعة انقضاء الدنيا بإطناب بديع علي سبيل التشبيه التمثيلي حيث شبهت حالة الحياة الدنيا وسرعة انقضائها بالماء المنزل من السماء نبت به الزرع وبلغ إلى قمة البهجة حتى جعله الله حصيدا بأمره كأن لم يكن شيئا مذكورا. "ومن بديع هذا التشبيه تضمنه لتشبيهات مفرقة من أطوار الحالين المتشابهين بحيث يصلح كل جزء من هذا التشبيه المركب لتشبيه جزء من الحالين المتشابهين، ولذلك أطنب وصف الحالين من ابتدائه."([7]) كما ذكر أن التشبيه هنا تشبيه تمثيلي لأنه قد شبهت الحالة المركبة بالحالة المركبة و"عبر عن ذلك بلفظ المثل الذي شاع في التشبيه المركب فإن ماء السماء بين من قبل أنه يجري على وجه الأرض إذ يغور؛ ولأنه ينزل قطرة قطرة ثم يذهب جملة، ولأن صوب المهاد يجم في الوهاد دون النجاد، مثل الدنيا هي تجتمع عند الأوغاد دون الأمجاد، ولأن ماء السماء إذا اتصل سال، فكذلك نعيم الدنيا إذا انتظم زال."[8]

قد بدأت الآية بكلمة{إِنَّمَا}: أداة حصر، ولكنها مجردة هنا عن معنى الحصر؛ لأنه تعالى ضرب للحياة الدنيا أمثالًا غير هذا،([9]) فيمكننا أن نقول أن القصر هنا قصر قلب. وذكر لفظ المثل كما نعرف أن الأمثال إنما تضرب لتوضيح المعنى الخفى، وتقريب الشيء المعقول من الشيء المحسوس، وعرض الأمر الغائب في صورة المشاهد، فيكون المعنى الذي ضرب له المثل أوقع في القلوب، وأثبت في النفوس،([10]) كما ذكر ذلك ليتبادر للسامع أن المقصود تشبيه حالة بحالة لا ذات بذات ولا حالة بذات، ومن أجل إطلاق لفظ المثل اقتبس علماء البيان مصطلحهم في تسمية التشبيه المركب بتشبيه التمثيل وتسمية استعمال المركب

---

6 – يونس: 23.

7 – التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : 1393هـ)،الناشر: الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: 1984 هـ،141/11.

8 – باهر البرهان فى معانى مشكلات القرآن، محمود بن أبي الحسن (علي) بن الحسين النيسابوريّ الغزنوي، أبو القاسم، الشهير بـ (بيان الحق) (المتوفى: بعد 553هـ)المحقق (رسالة علمية): سعاد بنت صالح بن سعيد بابقي، الناشر: جامعة أم القرى – مكة المكرمة حرسها الله تعالى، عام النشر: 1419 هـ – 1998 م، ص1/534.

9 – تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، الشيخ العلامة محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي، إشراف ومراجعة: الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي، الناشر: دار طوق النجاة، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، 1421 هـ – 2001 م، عدد الأجزاء: 33 (32 ومجلد للمقدمة)، ص: 12/228.

10 – التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد الطنطاوي، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، الطبعة: الأولى، تاريخ النشر: 1997 إلى 1988.

الدال على هيئة منتزعة من متعدد في غير ما وضع له مجموعة بعلاقة المشابهة استعارة تمثيلية([11])." فيه عشر جمل، وقع التركيب من مجموعها، بحيث لو سقط منها شيء، اختل التشبيه."([12]) وكلما كان التركيب من أمور أكثر كان التشبيه أبعد وأبلغ وأدخل في باب الغرابة وأبعد عن الابتذال.([13]) يقول الإمام الجرجاني- رحمه الله- "إنّ التشبيه كلما كان أوغل في كونه عقليّاً محضاً، كانت الحاجة إلى الجملة أكثر، كيف كثُرت الجُمل فيه؟ حتى إنك تَرَى في هذه الآية عَشْرَ جمل إذا فُصِّلت، وهي وإن كان قد دخل بعضُها في بَعْض حتى كأنها جملةٌ واحدة، فإن ذلك لا يمنعُ من أن تكون صُور الجمل معنا حاصلةً تشير إليها واحدةً واحدةً، ثم إنّ الشَبَه مُنْتَزع من مجموعها، من غير أن يمكن فَصْلُ بعضها عن بعض، وإفرادُ شطر من شطر، حتى إنك لو حذفت منها جملةٌ واحدةٌ من أيّ موضع كان، أخلَّ ذلك بالمغزى من التشبيه، ولا ينبغي أن تعدَّ الجُمل في هذا النحو بعَدِّ التشبيهات التي يُضَمّ بعضها إلى بعض، والأغْراض الكثيرة التي كل واحدٍ منها منفردٌ بنفسه، بل بعدّ جُمَلٍ تُنسَق ثانيةٌ منها على أوَّلةٍ، وثالثةٌ على ثانية، وهكذا، فإنّ ما كان من هذا الجنس لم تترتّب فيه الجمل ترتيباً مخصوصاً حتى يجب أن تكون هذه سابقةً وتلك تالية والثالثة بعدهما.([14]) ويقول أبو هلال العسكري عن هذا التشبيه "هو بيان ما جرت به العادة إلى ما لم تجربه. والمعنى الذى يجمع الأمرين الزينة والبهجة، ثم الهلاك، وفيه العبرة لمن اعتبر، والموعظة لمن تذكّر."[15]

{كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ} شبه به ابتداء أطوار الحياة من وقت الصبا لأن الإنسان عامة عادته أن يأمل في نعيم العيش ونضارته عند نزول المطر و خاصة أهل البادية والفلاحون يري عندهم رغبة خاصة ورجاء مخصوص من هذا لمطر، فلذلك شبه الأمل حال نزول المطر من السماء في كونه سبب ما يؤمل منه ويرجي من زخرف الأرض ونضارتها وبهجتها وزينتها.

{فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ} شبه به طور ابتداء نضارة العيش وإقبال زهرة الحياة ورونقها، فذلك شبه خروج الزرع بعد المطر فيما يشاهد من بوارق المأمول، والعطف بفاء التعقيب مؤذن أن النبات تنبت

---

11 – التفسير الوسيط للقرآن الكريم.

12 – التفسير المنير، ص:1/40.

13 – انظر: البلاغة الصافية في المعاني والبيان والبديع، لحسن بن إسماعيل بن حسن بن عبد الرازق الجناجيُ رئيس قسم البلاغة بجامعة الأزهر (المتوفى: 1429 هـ)، للمكتبة الأزهرية للتراث القاهرة – مصر،الطبعة: سنة:2006 م، ص:1/313.

14 – أسرار البلاغة لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (المتوفى: 471هـ)، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، ص:1/109.

15 – الصناعتين، لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو 395هـ)، المحقق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت، عام النشر: 1419 هـ، عدد الأجزاء:1، ص:1/241.

بالسرعة عقب المطر ويبتهج ويتزين المنظر علي الفور فيؤذن بسرعة نماء الحياة في أول أطوارها. وعبر عنه بالاختلاط بالماء بحيث ظهر قبل جفاف الماء، أي فاختلط النبات بالماء أي جاوره وقارنه.[16]{مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ} وصف لنبات الأرض الذي منه أصناف يأكلها الناس من الخضروات والبقول، وأصناف تأكلها الأنعام من العشب والكلأ، وذلك يشبه به ما ينعم به الناس في الحياة من اللذات وما ينعم به الحيوان، فإن له حظا في نعيم الحياة بمقدار نطاق حياته.

ولما كان ذلك قد تضمن المأكول والآكل صح أن تشبه به رغبات الناس في تناول لذائذ الحياة على حسب اختلاف مراتب الهمم، وذلك يتضمن تشبيه معالي الأمور من نعم الدنيا التي تسمو إليها الهمم العوالي بالنبات الذي يقتاته الناس، وتشبيه سفاسف الأمور بالنبات الذي يأكله الأنعام، ويتضمن تشبيه الذين يجنحون إلى تلك السفاسف بالأنعام، كقوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ}([17])

{حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ }كلمة {حَتَّى} تدل علي أن بين مبدأ ظهور لذات الحياة وبهجتها وزينتها وبين منتهاها مراتب جمة وأطوارا كثيرة، فذلك طوي في معنى {حَتَّى}.وفي هذه الجملة استعارة مكنية، حيث شبهت الأرض حينما تتزين بالنبات والأعشاب والأزهار، بالعروس المزينة بالحلي والثياب، ثم حذف المشبه به وأشير إلى شيء من لوازمه وهو الزخرف الذي هو اسم الذهب، وأطلق على ما يتزين به مما فيه ذهب وتلوين من الثياب والحلي،وأطلق أخذ الأرض زخرفها على حصول الزينة والتحسن على سبيل الاستعارة المكنية.([18])

والعرب يطلقون على ذلك التناول اسم الأخذ، قال تعالى:{يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ} ([19]) وفي كلمة {ازَّيَّنَتْ} استعارة ترشيحية، لأن المرأة تأخذ زخرفها للتزين.([20]) وقد ذكر صاحب التحرير والتنوير " وازينت أصله تزينت فقلبت التاء زايا لتدغم في الزاي فسكنت وأدغمت واجتلبت همزة الوصل لأجل النطق بالساكن."([21]) ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾ في هذاالكلام أيضا استعارة مؤذنة بأن

16 التحرير والتنوير: 1984 هـ،141/11، 142، و روح المعاني،في تفسيرالقرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين السيد محمودالآلوس دار الإحياء التراث العربي،بيروت الطبعة الرابعة.(بتصرف)

17 – محمد: 12.

18– التفسير المنير، 11/147.

19 – الأعراف: 31.

20 – التحرير والتنوير،ص: 11/147.

21 – التحرير والتنوير، ص: 11/147.

أهلها مقصودون بتلك الإصابة، معني ذلك أن لهم قدرة على حصول ثمراتها واستعمالها والانتفاع بها استمرارا فهذا التمكن إلى هذه الدرجة من الكمال والدوام الذي دل عليه سبحانه وتعالى بلفظ القدرة على وجه الاستعارة.

وقوله: ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾ جواب إذا الشرطية أي إما ليلا وإما نهارا حيثما شاء القادر و هذا الترديد في الوقت لإثارة التوقع ولإيذان من إمكان زوال نضارة الحياة في جميع الأزمنة يمكن أن يحدث ومؤذن منذر بالتهديد لحضرة الإنسان أن يعد نفسه لهذه المهمة في كل حين من الوقت لأن الشيء الموقت بمعين من التوقيت يكون الناس في أمن من حلوله في غير ذلك الوقت.

أما جعلها حصيدا علي سبيل المجاز العقلي مؤذن علي أن الله سبحانه وتعالي القادر الحقيقي هو يستطيع ما يشاء بدون قيد الزمان والمكان؛ والمراد من الحصيد المحصود، وهو الزرع المقطوع من منابته. والإخبار عن الأرض بحصيد على طريقة المجاز العقلي لأن الأرض لا يحصد وإنما يحصد ويقطع الزرع الذي ينبت في الأرض والمحصود نباتها. ومعنى لم تغن لم تعمر، أي لم تعمر بالزرع، أي كأن لم يغن زرعها ولكن حذف المضاف هنا للمبالغة كأنه يقول عز اسمه، كأن الزرع لم يك موجودا أصلا.

والباء في كلمة {بِالْأَمْسِ} للظرفية، والأمس معناه اليوم الذي قد مر ومضي بالقريب والمراد هنا الزمن الذي قد مضي علي الإطلاق وأيده ابن عاشور قائلا" واللام فيه مزيدة لتملية اللفظ مثل التي في كلمة الآن.لأن أمس يستعمل بمعنى ما مضى من الزمان، كما يستعمل الغد في معنى المستقبل واليوم في معنى الحال.([22])

{كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} هذا تذييل جامع، أي أن الله سبحانه وتعالي كذلك يبين هذا التفصيل لمن يتدبر ويتفكر ويتأمل في صنعه وتخليقه؛ لأن هذا التدبر والتأمل يوصل إلي صانعه وفي هذه الآية أو لمثل هذه الدلالات كلها الدالة على عموم العلم والقدرة وإتقان الصنع، واللام في كلمة {لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} لام الأجل أي لأجل التدبر والتفكر في صنع الله الذي أتقن كل شيئ يمكن و يسهل للسالكين الوصول إلي بارئهم تعالي وعز اسمه، كما يوجد في هذه الآية تعريض بأن الذين لم ينتفعوا ولم يستفيدوا بالآيات ليسوا من أهل التفكر ولا كان تفصيل الآيات لأجلهم. إذ لا بد للإنسان العاقل الدائن نفسه والعامل لما بعد الموت أن يتفكر ويتدبر في صنعه وتخليقه حتي يعرف أنه عز اسمه هو القادر علي كل شيئ إيجاداً وإعداماً، حالاً ومآلاً كما عرفنا كل ذلك من خلال دراسة هذه الآية.

22 - أنظر التحرير والتنوير، ص: 11/144.

الآية:﴿وَاضْـرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّـمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْـبَحَ هَشِـيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴾([23])

مفهوم الآية:

قد تضـمنت هذه الآية ضـروبًا من البلاغة، وأنواعًا من الفصـاحة والبيان والبديع خاصـةً ما اشـتملت عليه هذه الآية من أنواع التشبيهات. أشياء بأشياء فى معان وأوصاف بحيث لو فصلت لا حتاجت إلى شرح، مع اختصـاصـها بجزالة اللفظ، وبراعة النظم، وبلاغة المعانى وحسـن السـياق، ومن قبلها قد سـيق الكلام بالسياق الخاص وبأسلوب خطابي إلى رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم) علي سبيل التمثيل المركب و أمر أن يضـع أمام الناس هذا المثل ويضـرب لهم قصـة حقيقة الحياة الدنيا بضـرب المثل عن الدنيا وأهلها، وعن الآخرة وأهلها و هذا المثل خير دليل على حقارة الدنيا وقلة بقائها وفنائها حتما.

التحليل البلاغي:

الكلام مستأنف ما تقدم من قصة المشركين المتكبرين الذين افتخروا بأموالهم وأنصارهم على فقراء المؤمنين. وقال سـبحانه وتعالى: {وَاضْـرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} ثم ذكر المثل قائلا: {كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّـمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ} أي ربّي ذلك النبات فالتف بسـببه وتكاثف وتكاثر واهتز وأحسـن منظره كما هو أمر معتاد وأيده قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾([24]) ثم صـار هشـيما، أي مهشـوما متكسـرا ومتفتتا وقال ثم ذهبت به الرياح وطيرته وتفرقته تفريقا و تبديدا وجعلته هباء منثورا أي نثرته إلى سـائر الجوانب وكان الله على كل شـيء مقتدرا أي صـنعه وأوجده أولا ثم نمي ذلك النبات واهتز حتى جاء أجلها وأهلك وانتهت الحكاية وأحوال الدنيا أيضـا كذلك كما هو مفهوم من هذه الآية يعني تظهر أولا في غاية الحسـن والنضـارة ثم تتزايد قليلا قليلا ثم تأخذ في الانحطاط إلى أن تنتهي إلى الهلاك والفناء، وذكر ذلك الحقيقة صاحب التحرير والتنوير قائلا" فإنّما هي ظلٌّ زائلٌ، وضيفٌ راحل، وفي الحديث «الدنيا كسـوق قام ثمّ انفض»."([25]) ﴿وَٱضْـرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أمر الله سـبحانه وتعالي نبيه أن يضـرب لهم مثلا الحياة الدنيا علي سـبيل التشـبيه المركب التمثيلي حيث شـبهت الحياة الدنيا وما فيها من زخارف بالنبات الذي اختلط به الماء المنزل من السـماء، فبه ربا والتفّ النبات ثم أصـبح بعد ذلك كأن لم

23 – الكهف: 45.

24 – الحج: 5.

25 – انظر التحرير والتنوير، ص: 15/334.

يكن شـــيئا مذكورا؛ وأمّا التشـــبيه المقلوب: فقد كان من حق الكلام أن يقول: فاختلط بنبات الأرض، ووجهه: أنه لما كان كل من المختلطين موصوفا بصفة صاحبه، عكس للمبالغة في كثرته.([26])

أما الواو استئنافية فإطلاق اسم الحياة الدنيا على تلك المدة لأنها مدة الحياة الناقصة غير الأبدية لأنها مقدر زوالها، فهي دنيا. وتطلق الحياة الدنيا على مدة حياة الأفراد، أي حياة كل أحد. ووصفها ب (الدنيا) بمعنى القريبة، أي الحاضرة غير المنتظرة، كنى عن الحضور بالقرب، والوصف للاحتراز عن الحياة الآخرة وهي الحياة بعد الموت.[27]

{اضْـــرِبْ} فعل أمر بمعنى اذكر، والضـــمير فاعله العائد على محمد وكلمة {لَهُمْ} متعلق به {مَثَلَ الْحَياةِ} المفعول به وكلمة {الدُّنْيا} صفة {لِلْحَياةِ} أي واذكر لهم يا محمد صفة الحياة الدنيا.

﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّـــمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ قد ذكر المثل علي ســـبيل الاســـتئناف البياني أي الحياة الدنيا هي كماء أنزلناه من السماء جار ومجرور خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هي كماء.

وقيل والكاف في قوله: كماء في محل الحال من (الحياة) المضـاف إليه (مثل) . أي اضـرب لهم يا محمد مثلا للحياة الدنيا حال أنها كماء أنزلناه من السماء.([28])

{فَٱخْتَلَطَ بِهِ} أي اشـتبك بسـب الماء فالتف وخالط و تراكم بعضـه بعضـا من كثرته وتكاثفه و تكاثره "فمقتضـــى الظاهر حينئذ فاختلط بنبات الأرض وإيثار ما عليه النظم الكريم عليه للمبالغة بالكثرة فإن كلا المختلطين موصوف بصفة صاحبه."([29])

وهذا المثل منطبق على الحياة الدنيا بإطلاقيها، فهما مرادان منه. وضـــمير لهم عائد إلى المشـــركين كما دل عليه تناسق ضمائر الجمع الآتية في قوله: {وَحَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً}([30]) و {بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً}([31]) والباء في قوله:{بِهِ) باء الســببية. والضــمير عائد إلى (مَاء) أي فاختلط النبات بســبب الماء، أي اختلط بعض النبات ببعض. وليسـت الباء لتعدية فعل {اختلط} إلى المفعول لعدم وضـوح المعنى عليه، وفي ذكر الأرض بعد ذكر الســماء محســن الطباق. ليس المراد تشـبيه حال الدنيا بالماء وحده، بل بمجموع ما في حيز الأداة؛ أي: صفتها، وحالها وهيئتها كصفة، وحال وهيئة ماء أنزلناه من السحاب. أما

26- تفسير حدائق الروح والريحان، ص:16/396.و 16/403.

27 - بالتحرير والتنوير، ص: 15/334.

28 - التحرير والتنوير 15/334، 15/335.

29 - التحرير والتنوير ص: 15/334.

30 - الكهف: 47.

31 - الكهف: 48.

الفاء عاطفة في كلمة{فَاخْتَلَطَ} الذي هو فعل ماض والجار والمجرور"بِهِ" متعلق به والمركب الناقص{نَباتُ الْأَرْضِ} فاعل ومضاف إليه، والجملة معطوفة على جملة{أَنْزَلْناهُ}. أما الجملة ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ (أَصْبَحَ) مستعملة بمعنى صار وكان من قبيل الأفعال الناقصة وهو استعمال شائع عندالعرب. أي أصبح ذلك النبات الملتف إثر بهجتها ورفيفهاهشيما مهشوما مكسورا والهشيم: اسم على وزن فعيل بمعنى مفعول، أي مهشوما محطما. والهشم: الكسر والتفتيت.وذكر ذلك في تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن وقال:"{هَشِيمًا} أي: يابسًا متفرق الأجزاء، وقال الزمخشري: الهشيم ما تهشم، وتحطّم الواحدة هشيمة، وقال ابن قتيبة: كل ما كان رطبًا ويبس فهو هشيم، ويقال: صارت الأرض هشيمًا؛ أي: صار ما عليها من النبات والشجر قد يبس وتكسر"[32] قال القرطبي ما ملخصه: {هَشِيْمًا} أى متكسرا متفتتا، يعنى بانقطاع الماء عنه، فحذف ذلك إيجازا لدلالة الكلام عليه، والهشم، كسر الشيء اليابس. والهشيم من النبات: اليابس المتكسر.. ورجل هشيم: ضعيف البدن. فهذا هو الذى نريده بالإيجاز، ومن الاختصار العجيب والإيجاز البليغ فى التشبيه هو قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ أما الفاء عاطفة في كلمة {فَأَصْبَح} الذي هو فعل ناقص كما مر من قبل واسمه ضمير يعود على نبات الأرض {هَشِيمًا} خبر أصبح الذي هو فعل ناقص والجملة معطوفة على جملة {اخْتَلَطَ} تذروه الرياح أي تذهب به وتطير به الرياح وتبعثره في أماكن مختلفة. والذرو: الرمي في الهواء. وليس المشبه به نفس الماء بل هو الهيئة المنتزعة من الجملة وهي حال النبات المنبت بالماء يكون أخضر ثم هشيما تطيره الرياح كأن لم يغن بالأمس ولم بكن شيئا مذكورا شبهت حالة هذا العالم بما فيه بحالة الروضة تبقى حينا من الزمن بهجة خضرة ثم يصير نبتها بعد حين إلى اضمحلال. ووجه الشبه: المصير من حال حسن إلى حال سيء. وهذا تشبيه معقول بمحسوس لأن الحالة المشبهة معقولة إذ لم ير الناس بوادر تقلص بهجة الحياة، وأيضا شبهت هيئة إقبال نعيم الدنيا في الحياة مع الشباب والجدة وزخرف العيش لأهله، ثم تقلص ذلك وزوال نفعه ثم انقراضه أشتاتا بهيئة إقبال الغيث منبت الزرع ونشأته عنه ونضارته ووفرته ثم أخذه في الانتقاص وانعدام التمتع به ثم تطايره أشتاتا في الهواء، تشبيها لمركب محسوس بمركب محسوس ووجه الشبه كما علمت. أما تَذْرُوهُ الرِّياحُ فعل ومفعول وفاعل، والجملة في محل النصب صفة لكلمة {هَشِيمًا}.{وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا} أي الله سبحانه وتعالى قادر على كل شيئ من الإعدام والإيجاد والإنشاء والإفناء. وقيل هذه جملة معترضة في آخر الكلام، موقعها التذكير بقدرة

32 تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، ص: 16/396.

الله تعالى على خلق الأشـياء وأضـدادها، وجعل أوائلها مفضـية إلى أواخرها، وترتيبه أسـباب الفناء على أسـباب البقاء، وذلك اقتدار عجيب. وقد أفاد ذلك على أكمل وجه بالعموم الذي في قوله: {عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِراً} وهو بذلك العموم أشبه التذييل. والمقتدر أي القوي القدرة.([33])" لا يعجزه شيئ قادرا على الكمال."([34]) وَكانَ فعل ناقص واسمه لفظ جلالة الله أما الجار والمجرور عَلى كُلِّ شَيْءٍ متعلق بكلمة مُقْتَدِرًا و كلمة مُقْتَدِرًا خبر كَانَ ناقصة وجملة كَانَ مستأنفة مع كونه التشبيه التّمثيلي المقلوب.

الخلاصة:

وفي هذا المثال قد ذكر القرآن الكريم قصة الحياة الدنيا موجزًا أن الحياة الدنيا بهجتها وسرورها ورونقها ليس أبدي وليس له قوام بل للحياة الدنيا فناء كما حصل فى هذه المثال. وسيأتي يوم القيامة كل شيء يفني بل يفني العالم فالله سبحانه وتعالى قادر حقيقى على كل شيء.

الآية:﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْـفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَـدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾([35])

مفهوم الآية:

عندما ذكر الله سـبحانه وتعالى أحوال المؤمنين والكافرين ذكر بعده ما يدل على حقارة الدنيا وكمال حال الآخرة، وذكر أن الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر، ولا شك أن هذه الأشياء أمور محقرة، وأما الآخرة فهي إما عذاب شديد دائم وإما مغفرة من الله و رضوان من الله على سبيل الدوام، ولا شك أن ذلك عظيم، وذكر ذلك سبحانه على سبيل التمثيل ليتذكر أولو الألباب؛ لأن التمثيل أوقع وأوثق في النفوس كما ذكر من قبل حيث قال: كمثل غيث يعني المطر، ونظير قوله تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾([36]) وقد ذكر ذلك أيضا.

التحليل البلاغي:

---

33 – التحرير والتنوير، ص: 334و15/335.

34 – تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، المؤلف: أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: 982هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص:5/224.

35 – الحديد: 20.

36 – الكهف: 45.

افتتاح الكلام ب {اعْلَمُوا} ونحوه يؤذن بأن ما سيلقى جدير بتوجه الذهن على طريقة الالتفات إقبالا عليهم للاهتمام.وافتتحت الجملة باعلموا للاهتمام بما تتضمنه وحث المخاطبين على التأمل فيما بعده، وذلك من أساليب الكلام البليغ أن يفتتح بعض الجمل المشتملة على خبر أو طلب فهم بأعلم أو تعلم لفتا لذهن المخاطب.

وفيه تعريض غالبا بغفلة المخاطب عن أمر مهم فمن المعروف أن المخبر أو الطالب ما يريد إلا علم المخاطب فالتصريح بالفعل الدال على طلب العلم مقصود للاهتمام.([37])

{إِنَّمَا} أداة حصر {كمثل غيث} تشبيه تمثيلي لأن وجه الشبه منتزع من متعدد، حيث "شبه حال الدنيا وسرعة تقضيها مع قلة جدواها بنبات أنبته الغيث فاستوى واكتهل"([38]) "وأنما لإفادة الحصر، وحصر الحياة الدنيا في الأخبار الجارية عليها هو قصر أحوال الناس في الحياة على هذه الأمور الستة باعتبار غالب الناس، فهو قصر ادعائي بالنظر إلى ما تنصرف إليه هم غالب الناس من شؤون الحياة الدنيا، والتي إن سلم بعضهم من بعضها لا يخلو من ملابسة بعض آخر إلا الذين عصمهم الله تعالى فجعل أعمالهم في الحياة كلها لوجه الله، وإلا فإن الحياة قد يكون فيها أعمال التقى والمنافع والإحسان والتأييد للحق وتعليم الفضائل وتشريع القوانين. "لفظ الحياة زائد، والمضاف مضمر، و {مَا} موصولة؛ أي: اعلموا أن أمور الدنيا وشؤونها ، ويجوز أن تجعل الحياة الدنيا مجازًا عن أمورها بعلاقة اللزوم. قال علي بن أبي طالب لعمار بن ياسر (رضي الله تعالى عنهما) لا تحزن على الدنيا، فإن الدنيا ستة أشياء: مطعوم، ومشروب، وملبوس، ومشموم، ومركوب، ومنكوح. فأكبر طعامها العسل: وهو ريقة ذبابة، وأكبر شرابها الماء، ويستوي فيه جميع الحيوان، وأكبر الملبوس الديباج: وهو نسج دودة، وأكبر المشموم المسك: وهو دم ظبية، وأكبر المركوب الفرس وعليها يقتل الرجال، وأكبر المنكوح النساء،وهو مبال في مبال."([39]) وقد ذكر هنا من شؤون الحياة ما هو الغالب على الناس فإن اللعب طور سن الطفولة والصبا، واللهو طور الشباب، والزينة طور الفتوة، والتفاخر طور الكهولة، والتكاثر طور الشيخوخة. وذكر هنا خمسة أشياء: لَعِبٌ ما لا فائدة فيه. وَلَهْوٌ ما يشغل الإنسان عما يعنيه. "واللعب واللهو شيء واحد، أو إن اللعب: ما لا فائدة فيه، واللهو: ما يشغل

37 – التحرير والتنوير، ص: 314/ 9.

38 – تفسير الكشاف، للإمام جارالله محمود بن عمر الزمخشري. الناشر دار الكتاب العربي بيروت، ، ص:4/479.

39 – تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، ص 484 إلى 28/487.

الإنســـان عما يعنيه."[40] وَزِينَةٌ تزيين أو ما يتزين به، كالمناصـــب العالية والمراكب البهية والمنازل الرفيعة والملابس الفاخرة. وَتَفاخُرٌ بالألقاب والأمجاد والأنســاب. وَتَكاثُرٌ مباهاة بكثرة الأموال والأولاد. كَمَثَلِ أي أن الدنيا.والتفاخر:من باب التفاعل ربما لإظهار الفخر بين مقابليه كما هو معروف من صفات هذا الباب ومعني التفاخر ما يفتخر به الإنســان من محامده ويعلي نفســه بزعمه هو وقال ابن عاشــور في تفســيره " الكلام الذي يفخر به، والفخر: حديث المرء عن محامده والصـــفات المحمودة منها فيه بالحق أو الباطل. وصيغ منه زنة التفاعل لأن شأن الفخر أن يقع بين جانبين كما أنبأ به تقييده بظرف بينكم."([41]) والتكاثر أيضــا من باب التفاعل من الكثرة، وقد صــيغ صــيغة التفاعل هنا للمبالغة في الفعل بحيث ينزل منزلة من يغالب غيره في كثرة شيء،أي الإنسان أشد حريصا على أن يكون عنده الأكثر من المال والأولاد وما يتعلق بالحياة الدنيا من أدوات الزينة،ثم شاع إطلاق صيغة التكاثر فصارت تستعمل في الحرص على تحصيل الكثير من غير مراعاة مغالبة الغير ممن حصل عليه، قال تعالى: {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ}.([42]) أما كلمة في الذي استعمل في قوله في الأموال والأولاد: إما للتعليل، وإما هي الظرفية المجازية، فإن جعلت الأموال كالظرف يحصـــل تكاثر الناس عنده كمن ينزع في بئر. وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْـــفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا.مجاز مرســل علاقته المســببية، أي إلى ســبب مغفرة؛ وفيه قد ذكر المفســرون جهتين، الأولي منهما: هي أن يجوز كونها في موضــع خبر من مبتدأ محذوف، أي هي كمثل غيث فهكذا ســتكون الجملة مستئنافة، وحذف المسند إليه من النوع الذي سماه السكاكي متابعة الاستعمال. والجهة الثانية هي أن يجوز كون الكاف في موضـــع الحال فيكون المعني للمركب الجار كحال، أي حال الحياة الدنيا كحال غيث، وشبهت هنا هيئة أهل الدنيا في أحوالهم التي غلبت عليهم ومحبوبة لديهم أشد حبا مشيرا إلى تنويعها بقوله لعب ولهو وتفاخر وتكاثر في الأموال والأولاد بهيئة غيث أنبت زرعا فاســـتوى واكتمل وأعجب به من رآه فمضــت عليه مدة فيبس وتحطم، وذلك علي ســبيل التشــبيه التمثيلي "والمقصــود بالتمثيل هو النبات، وإنما ابتدئ بغيث تصويرا للهيئة من مبادئها لإظهار مواقع الحسن فيها لأن ذلك يكتسب منه المشبه حسنا"([43]) "وعن ابن مســعود رضـــي الله تعالى عنه: أن الكفار: الزراع، جمع كافر وهو الزارع لأنه يكفر الزريعة بتراب

40 – التفسير الوسيط للزحيلي، المؤلف : د وهبة بن مصطفى الزحيلي، الناشر: دار الفكر – دمشق، الطبعة : الأولى – 1422 هـــ، عدد الأجزاء : 3 مجلدات في ترقيم مسلسل واحد، ص: 3/2597.

41 – التحرير والتنوير، ص: 27/402.بالتصرف

42 – التكاثر: 1.

43 – التحرير والتنوير، ص: 27/404.

الأرض، والكفر بفتح الكاف الستر، أي ستر الزريعة، وإنما أوثر هذا الاسم هنا وقد قال تعالى في سورة الفتح ، يعجب الزراع، قصدا هنا للتورية بالكفار الذين هم الكافرون بالله لأنهم أشد إعجابا بمتاع الدنيا إذ لا أمل لهم في شيء بعده. وقال جمع من المفسرين: الكفار جمع الكافر بالله لأنهم قصروا إعجابهم على الأعمال ذات الغايات الدنيا دون الأعمال الدينية، فذكر الكفار تلويح إلى أن المثل مسوق إلى جانبهم أولا. والنبات: اسم مصدر وهو هنا أطلق على النابت من قبيل إطلاق المصدر على الفاعل للمبالغة، وقد يشيع فيزول قصد المبالغة به. ثم يهيج أي ييبس أو يجف، وقيل لا يوجد أي شاهد من كلام العرب يدل على أن معني الهياج هو الجفاف، وقد قال الراغب: يقال: هاج البقل، إذا اصفر وطاب، وفي «الأساس»: من المجاز هاج البقل، إذا أخذ في اليبس. وهذان الإمامان لم يجعلا {هَاجَ} بمعنى {يَبِسَ} وكيف لفظ الآية ثم يهيج فتراه مصفرا، فالوجه أن الهياج: الغلظ ومقاربة اليبس، لأن مادة الهياج تدل على الاضطراب والثوران وسميت الحرب الهيجاء،وعطفت جملة يهيج ب {ثُمَّ} لإفادة التراخي الرتبي؛ لأن اصفرار النبات أعظم دلالة على التهيؤ للزوال، وهذا هو الأهم في مقام التزهيد في متاع الدنيا. والعطف في كلمة فتراه مصفرا بالفاء للتقريب أي بعد بهجة النبت يسرع إلى ييبسه، أما العطف في كلمة ثم يكون حطاما اختيرت من أدوات العطف أداة ثم لإفادة التراخي الرتبي والحطام بضم الحاء معناه ما حطم، أي كسر قطعا. وهذا التمثيل مع كونه تشبيه هيئة مركبة بهيئة مثلها هو صالح للتفريق ومقابلة أجزاء الهيئة المشبهة بأجزاء الهيئة المشبه بها، فيشبه أول أطوار الحياة وإقبالها بالنبات عقب المطر، ويشبه الناس المنتفعون بإقبال الدنيا بناس زراع، ويشبه اكتمال أحوال الحياة وقوة الكهولة بهياج الزرع، ويشبه ابتداء الشيخوخة ثم الهرم وابتداء ضعف عمل العامل وتجارة التاجر وفلاحة الفلاح باصفرار الزرع وتهيئه للفناء، ويشبه زوال ما كان للمرء من قوة ومال بتحطم الزرع.

ذكرت الأحوال للحياة الآخرة علي سبيل المقابلة بعد ما ذكرت أحوال الحياة الدنيا لأن ذكر حال الحياة الدنيا كان مقتضيا ذكر مقابله على عادة القرآن، "والخبر مستعمل في التحذير والتحريض أما القرينة الدالة عليها سياق الكلام، ولذلك لم يبين أصحاب العذاب وأصحاب المغفرة والرضوان بالصراحة وكني عن النعيم بمغفرة من الله ورضوان. وعطف وما الحياة الدنيا {إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ}على {وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ} للمقابلة بين الحالين زيادة في الترغيب والتنفير. والكلام على تقدير مضاف، أي وما أحوال الحياة الدنيا إلا متاع الغرور. والحصر ادعائي باعتبار غالب أحوال الدنيا بالنسبة إلى غالب طالبيها، فكونها متاعا أمر مطرد وكون المتاع مضافا إلى الغرور أمر غالب بالنسبة لما عدا الأعمال العائدة على المرء بالفوز في الآخرة.

والغرور: الخديعة، وإضافة متاع إلى الغرور على معنى لام العاقبة، أي متاع صائر لأجل الغرور به، أي آيل إلى أنه يغر الناظرين إليه فيسرعون في التعلق به.([44])

الخلاصة:

ويفهم من هذا أن ما كان من أحوال الحياة مقصودا لوجه الله فإنه من شؤون الآخرة فلا يدخل تحت هذا التمثيل إلا ظاهرا. فأعمال البر ودراسة العلم ونحو ذلك لا يعتريها نقص ما دام صاحبها مقبلا عليها، وبعضها يزداد نماء بطول المدة."وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور. هذا تنفير عن الانهماك في الدنيا، وحث على العمل للآخرة. وهناك أمثلة أخري لمادة الماء علي مدار القرآن الكريم ومنها هذه الآية:

الآية:أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ([45])

مفهوم الآية:

لما ذكر تعالى فى أول السورة صفات المؤمنين، وأعقبها بذكر صفات الكافرين، ذكر هنا " المنافقين " وهم الصنف الثالث، الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، وأطنب بذكرهم فى ثلاث عشرة آية، لينبه إلى عظيم خطرهم، وكبير ضررهم، ثم عقب ذلك بضرب مثلين، زيادة فى الكشف والبيان، وتوضيحا لما تنطوى عليه نفوسهم من ظلمة الضلال والنفاق، وما يئول إليه حالهم من الهلاك والدمار.

وفي هذه الآية قد ذكرت أحوال المنافقين ومدّ أطناب الإطناب في شرح أفعالهم وهذه الآية عطف على التمثيل السابق وهو قوله تعالى: "كمثل الذي استوقد نارا"، وفي هذه الآية شبه دين الإسلام بالصيب لأن القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر ومايتعلق به من شبه الكفار بالظلمات ومافيه من الوعد والوعيد والبرق وما يصيب الكفرة من الأفزاع والبلايا والفتن من جهة أهل الإسلام بالصواعق، والمعنى : أو كمثل ذوي صيب، وهذا تشبيه مفرد بمفرد، وكذلك فيه تشبيه مركب كما رجحه صاحب الكشاف وقال: وهو القول الفحل والمذهب الجزل[46]، وكذلك تقديره: أو كمثل ذوي صيب لأن الضمير الراجع يقتضي ما يرجع إليه وإلا لم تكن الحاجة إليه.

---

44 - التحرير والتنوير، 400 إلي 27/407.بالتصرف

45 - البقرة: 19.

46- تفسير الكشاف، 1/ 77.

اللغة:

صَيِّب: الصَّيِّب فَيْعِل من صَابَ يَصُوْبُ صَوْبًا إذا نزل بشدة، قيل: إن ياءه للنقل من المصدرية إلى الاسمية فهو وصف للمطر بشدة الظلمة الحاصلة من كثافة السحاب ومن ظلام الليل.

السَّمَاءُ: السَّمَاء كل ما علاك من سقف ونحوه لما قيل في روح المعاني،([47]) وكذلك قيل: والمراد بالسماء هنا الأفق، والتعريف للاستغراق لا للعهد الذهني، وهي للتهويل، ولا يخفى ما في ذلك من الإشارة إلى أن أشد ما يؤذيهم هو كان مجييئه من فوق رؤوسهم، وذلك أبلغ في الإيذاء كما يشير إليه قوله تعالى:{يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ}([48]) وكثيرا مانجد أن المرء يعتني بحفظ رأسه أكثر مما يعتني بحفظ سائر أطرافه.

رَعْدٌ :الصَّوْت الذى يُسْمَعُ مِنَ السَّحَابِ.

بَرْقٌ: الذى يَلْمَعُ مِنَ السَّحَابِ.

كَافِرِيْن: الكافرفى لسان الشرع من يجحدالوحدانية، أو النبوة، أوالشريعة، وقد يطلق الكفر على ترك الواجب فى الشريعة، مع تحصيل أصل الإيمان، وذلك للردع والزجروالتغليظ، ومنه: "ولله على الناسِ حِج البيت" أى من لم يحجج مع الاستطاعة.

التحليل البلاغي:

(أو) في {أَوْ كَصَيِّبٍ} في أصل وضعها للتساوي بين شيئين فصاعدا، ولتؤدي معنى الشك، ثم اتسع فيها، فاستعيرت في غير الشك، إذن أو كصيب معناه أن كيفية قصة المنافقين تشبه كيفية هاتين القصتين، وأن القصتين سواء في استقلال كل واحدة منهما بوجه التمثيل، إذ من الممكن أن نمثل إحداهما بها أو كليهما.

أما تنكير {صَيِّبٍ} للدلالة على المطر الشديد الهائل، وقد ذكر في روح المعاني أنه قرئ "أو كصائب" وصيب أبلغ منه، والتنكير فيه للتنويع والتعظيم. وتنكيره لما أنه أريد نوع منه شديد هائل، كالنار في التمثيل الأول.

وأمد به ما فيه من المبالغات من جهة مادته الأولى التي هي الصاد المستعليه والياء المشددة، ومادته الثانية أعنى الصوب المبني على شدة الانسكاب، ومن جهة بنائه الدال على الثبات.[49] ومن روائع ما نجد في الآية أنها تحتوي على ظاهرة الإطناب حيث ذكر صفاتهم في حوالي(13) آية لتتناسب مع ما هم فيه من

47- روح المعاني، ص: 1/ 231.

48- الحج: 19

49 تفسير أبي سعود،1/ 73

الأمراض النفسية المتعددة ولقد نُعيَ عليهم في هذا التمثيل تفاصيلُ جناياتهم، وذلك في أكثر من أسلوب تشبيه تمثيلي حيث ورد قبل هذه الآية في الآية السابقة تمثيل آخر، هو: مثلهم كمثل الذي استوقد نارا...

{مِنَ السَّمَاءِ}من لابتداء الغاية، وفي ذكر السماء أيضا إطناب لأن الصيب لاينزل إلا من السماء كما نعرف، وذكرت هنا السماء على سبيل الإطناب، وهذا الإطناب بمثابة زيادة استحضار صورة الصيب.والتعريف للاستغراق وللنفي أن يتصوب من سماء أي من أفق واحد من بين سائر الآفاق.

والضميرفي "فيه" عائد إلى {صَيِّبٍ} والظرفية مجازية بمعنى "معه"، ولذا ارتفعت كلمة {ظُلُمَاتٌ}" و الرعد" الصوت الذي يسمع من السحاب، كأن أجرام السحاب تضطرب وتنقض إذا حدتهاالريح فتصوت عند ذلك من الاتحاد، "البرق" الذي يلمع من السحاب.

وجيء برعد وبرق نكرتين لكونهما إما عينين وإما حدثين كأنه قيل وإرعاد وإبراق، كما قال الآلوسي" ولم يجمع الرعد والبرق وإن كانا قد جمعا في لسان العرب، وبه تزداد المبالغة وتحصل المطابقة مع الظلمات والصواعق لأنهما مصدران في الأصل."[50] {ظُلُمَاتٌ} مستعار لما يعتري الكافرين من الوحشة عند سماعه كما تعتري السائر في الليل وحشة الغيم لأنه يحجب عنه ضوء النجوم والقمر. والرعد لقوارع القرآن وزواجره. والبرق لظهور أنوار هديه من خلال الزواجر فظهر أن هذا المركب التمثيلي صالح لاعتبارات تفريق التشبيه وهو أعلى التمثيل.

وكذلك من النكات البلاغية الجميلة في الآية الكريمة هو ما يلاحظ فيها من تنكير كلمات {ظُلُمَاتٌ وَّرَعْدٌ وَّبَرْقٌ}، وذلك للدلالة على التفخيم، ومعناها على أساس هذا الفهم هو: فيه ظلماتٌ شديدة داجية ورعدٌ قاصفٌ وبرق خاطف.

{يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ} فيه جواب لسؤال مقدر وهو كيف حالهم مع مثل ذلك الرعد؟ فقيل يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق، وهذا من قبيل الإيجاز الذي يُفضل في غالب الأحيان على الذكر. واستخدمت كلمة (أصابعهم) على سبيل المجاز المرسل، والمراد منه المبالغة والتمثيل المهيب.

ونكتة أخرى فيه أن الإنسان يستخدم عموما أصبع السبابة، ولم يذكر القرآن الكريم اسمها هنا لكونها على وزن فعالة وهي سبابة من السبب، واجتنب إجلالا بأدب القرآن الكريم[51] .

---

50 روح المعاني، 1/ 234

51 _ تفسير الكشاف، 79/1.

{وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ} والإحاطة استعارة للقدرة الكاملة، وشبهت القدرة الكاملة التي لايفوتها المقدور بإحاطة المحيط بالمحاط على طريقة التبعية أو التمثيلية وإن لم يذكر جميع ما يدل على جميع المركب الدال على الهيئة المشبهة بها، وقد استعمل هذا الخبر في لازمه وهو أنه لايفلتهم وأنه يجازيهم على سوء صنعهم.[52] وهذا التمثيل أبلغ من التمثيل الأول لأنه أدل على فرط الحيرة وشدة الأمر وفظاعته، ولذلك أخروهم يتدرجون في نحو هذا من الأهون إلى الأغلظ.[53] {والله مُحِيطٌ بالكافرين } أي لا يفوتونه كما لا يفوت المحاطُ به المحيطَ، شبه شمولَ قدرته تعالى لهم، وانطواءَ ملكوتِه عليهم، بإحاطة المحيط بما أحاط به في استحالة الفوْت، أو شَبَّه الهيئةَ المنتزعة من شؤونه تعالى معهم بالهيئة المنتزعة من أحوال المحيط مع المحاط، فالاستعارة المبنيةُ على التشبيه الأول استعارة تبعيةٌ في الصفة متفرّعة على ما في مصدرها من الاستعارة.

الخلاصة:

وقد وردت في هذه الآية الكريمة مجموعة من التشبيهات الرائعة، فمثلا: شبهت حال المنافقين بحال قوم سائرين في ليل بأرض قوم أصابها الغيث في صورة تشبيه تمثيلي. وفي هذا تشبيه لجزع المنافقين من آيات الوعيد بما يعتري القائم تحت السماء حين الرعد والبرق والظلمات فهو يخشى استكاك سمعه ويخشى الصواعق حذر الموت وشبه البرق حين يلمع بإضاءة شديدة ويعمى عليه الطريق بعد انقطاع لمعانه. وقوله: {وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ} اعتراض للتذكير بأن المقصود التمثيل لحال المنافقين في كفرهم لا لمجرد التفنن في التمثيل.([54])

الآية:

﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ١٤﴾([55])

مفهوم الآية:

قد قررت هذه الآية الكريمة حقيقة مهمة من حقائق الإيمان، لاتستقيم حياة الإنسان عموما، وحياة المؤمن خصوصا إلا بالاعتقاد بها، والتسليم لها، والخضوع لمقتضياتها، وتلك الحقيقة تقول إن الدعاء، وطلب

52 التحرير والتنوير، 1/ 314
53 الكشاف، 1/ 78
54 انظر: روح المعاني للآلوسي 1/ 54
55 - الرعد: 14.

العون، وقضـــاء الحاجة، إنما يكون من الحق الذي هو الله عز وعلا، على معنى: دعوة المدعوّ الحق الذي يسمع فيجيب.وعن الحسن: الحق هو الله، وكلّ دعاء إليه دعوة الحق.([56])

ولا يليق بالعبد المؤمن أن يتوجه إلى غيره، مهما أوتي هذا الغير من قوة وجبروت، ومهما حاز من ســـطوة وملكوت،لا يستطيع أن يعطيهم بشيء لأنه أعجز عن ذالك، وقد شبهت الآية الكريمة حال المشركين في دعائهم الأصنام و جلب نفعهم و عدم استجابة الأصنام لهم بشيء بحال الظمآن يبسط كفيه يبتغي أن يرتفع الماء في كفيه المبسوطتين إلى فمه ليرويه ولكن الماء جماد لا يشعر ببسط كفي طالبه، ولا بعطشه، وحاجته إليه فيذهب سعيه وتعبه باطلا.

لذا قيل فى بداية هذه الآية له دعوة الحق أي الدعوة الثابتة للحق واللائقة بحضرته فقط.

التحليل البلاغي:

يقول صـــاحب التحرير والتنوير: "واللام هنا للملك المجازي وهو الاســـتحقاق. وتقديم الجار والمجرور على المبتدإ لإفادة التخصيص، أي دعوة الحق ملكه لا ملك غيره، وهو قصر إضافي".([57])

إضافة الدعوة إلى الحق فيه وجهان: الأول: أن تضاف الدعوة إلى الحق لكونها إضافة الموصوف إلى الصفة للدلالة على أن الدعوة ملابسة للحق مختصة به ولا بغيره فهو يستجيب.

والثاني: أن تضاف إلى منشئه أي إلى الحق الذي هو الله سبحانه وتعالى على معنى: دعوة المدعوّ الحق الذي يســـمع فيجيب. يقول صـــاحب التحرير والتنوير: "فإن دعاء الله يصـــدر عن اعتقاد الوحدانية وهو الحق، وعبادة الأصنام تصدر عن اعتقاد الشرك وهو الباطل."([58]) {وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ} فيه تصريح بمفهوم جملة القصر التي كانت بيانا لها." وكان مقتضى الظاهر أن تفصل ولا تعطف و إنما عطفت لما فيها من التفصيل والتمثيل، فكانت زائدة على مقدار البيان. والمقصود بيان عدم استحقاق الأصنام أن يدعوها الداعون. والمراد بالاسم الموصول الأصنام والضمير دال على المشركين والعائد محذوف. وتقديره: وَالَّذِينَ يَدْعُوْهُم مِنْ دُونِهِ أَيْ مِنْ دُوْنِ الله لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ، أي الأصنام الذين يدعوهم المشركون من دون الله لا يستجيبون لهم بشيء. واستخدام ضمير العقلاء للأصنام أمر شائع عندالعرب وليس بغريب. {لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ}، الاستجابة إجابة نداء المنادي ودعوة الداعي فالسين والتاء لقوة الفعل. والباء في بشيء لتعدية الفعل إلى الشيء المجاب به، تفيد التعدية هنا عدم تحقيق المأمول لهذا السبب

56- الكشاف، 2/521.

57 - التحرير والتنوير، 13/108.

58 التحرير والتنوير، 13/108.

لم تقتصـــر الآية على الفعل بل ذكرت التعدية لنفي إجداء دعائهم الكافرين وفيه نكتة أنهم لا يســـتطيعون الوعد بالعطاء أو الاعتذار عن العطاء ولا يستطيعون أن يعطوهم بشيء خفيف جدا، والمرادبالتنكير في هذه الصـورةِ أن ليسـت فيها شـائبةُ الاسـتجابة قطعاً فهو في الحقيقة من باب التعليقِ بالمحال على هذا يمكن أن نقول إذا هم عاجزون عن ذلك أعجز عما فوقه.

{إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ} قد سيق الاستثناء هنا لتأكيد الشيء بما يشبه ضده فيؤول إلى نفى الاستجابة فى سائر الأحوال بطريق التلميح والكناية، وشبه حال المشركين على سبيل التشبيه التمثيلي بحال عطشـانَ هائمٍ لا يدري ما يفعل قد بسـط كفيه إلى الماء ويبتغي أن يرتفع الماء في كفيه المبسـو طتين إلى فمه ليرويه ولكن الماء لكونه جماداً لا يشـعُر بعطشـه ولا ببسـط يدِه إليه فضـلاً عن الاسـتطاعة لما أراده من البلوغ إلى فيه فيذهب سعيه وتعبه باطلا مع ما فيه من كناية و تلميح. والعرب تضرب لمن سعى فيما لا يدركه مثلا بالقابض على الماء، يقول أبو سعود في تفسيره: شبّه حالُ المشركين في عدم حصولهم في دعاء آلهتِهم على شـيء أصـلاً وركاكةِ رأيهم في ذلك بحال عطشـانَ هائمٍ لا يدري ما يفعل قد بسـط كفيه من بعيد إلى الماء يبغي وصـــولَه إلى فيه من غير ملاحظةِ التشـــبيه في جميع مفرداتِ الأطراف فإن الماءَ في نفسـه شـيءٌ نافع بخلاف آلهتِهم والمرادُ نفيُ الاستجابةِ رأساً إلا أنه قد أُخرج الكلامُ مُخرج التهكم بهم فقيل لا يستجيبون لهم شيئاً من الاستجابة كائنة في هذه الصورةِ التي ليست فيها شائبةُ الاستجابة قطعاً فهو في الحقيقة من باب التعليقِ بالمحال وقرىء تدعون بالتاء وكباســـطٍ بالتنوين."([59]) {وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَـــلَالٍ} عطف هذه الجملة على الجملة الســـابقة التي هي: {وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ} وفيها بيان حال المدعو وعجزه عن ما يدعى ويطلب منه وبيان حال الداعي و ضـعف قوة اعتقاده بالتمثيل وفي هذه الجملة أيضا توكيد وتقرير ما قبلها بالتصريح يقول صاحب التحرير والتنوير: "فباختلاف الغرض والاسلوب حسن العطف، وبالمئال حصـــل توكيد الجملة الأولى وتقريرها وكانت الثانية كالفذلكة لتفصـــيل الجملة الأولى."([60])أي وما دعاء الكافرين إلا في ضـياع لا منفعة فيه، لأنهم إن دعوا الله لم يجبهم، وإن دعوا الآلهة لم تستطع إجابتهم. إذًا فلا فائدة لدعائهم الآلهة قط وكلمة في الظرفية المجازية تدل على التمكن في الوصف، كما نعرف أن المجاز أبلغ من الحقيقة ويصور للمعنى المقصود خير تصوير ولا يخلو من مبالغة بديعة أي إلا ضائع ضياعا شديدا.

59 – تفسير أبي السعود، 5/11.

60 – التحرير والتنوير، 110/13.

الخلاصة:

ما يستفاد من هذه الآية أن لكل دعوة حقا لله، أى كلما يدعو الإنسان فعليه أن يدعو الله فقط ولا يليق لأحد أن يدعو غيره ولا يستحق أحد أن يدعو منه ولكن مع ذلك إذ سئل أحد غير الله دعائه لايقبل مثل ما لايستطيع باسط كفيه أن يشرب ماء بكفيه المبسوطة ولا يستجاب دعائهم حتى يلج الجمل فى سم الخياط.

قد ذكر القرآن الكريم أمثلة كثيرة على مدار القرآن الكريم ومن بين هذه الأمثلة ما ذكر فيها الماء أما ما درست منها وحللتها تحليلا بلاغيا يمكن تلخيصها على نكات آتية:

قد مثل القرآن الكريم الحياة الدنيا كماء المنزل من السماء وأطنب فيها الذكر ما يسبب بهذا الماء من الرزق والبهجة والنضارة والزينة وما إلى ذلك، قد بلغ الرونق إلى قمة الزينة وسهل الحصول عليه بل ظن من على وجه الأرض أنهم قادرون على الاستفادة وفجأة جاء أمر الله لإنهاء هذه الزينة والبهجة في أي حين حسب ما أرادالله سبحانه وتعالى بدون قيد الوقت وظل كل ذلك كأن لم يكن موجودا وفي هذا المثال دليل على قدرة الله القاهرة الباهرة، حقيقة الحياة الدنيا على أنها لا تبقى دائما بل كتب الله عليها النهاية.

ومثل أيضا بالماء المنزل يسبب لنبت الزرع ورونقها ثم بعد ذلك يطيربه الرياح بأكملها وهذا ليس بصعب على الله سبحانه وتعالى.

ثم مثل الحياة الدنيا وزينتها وتفاخرها وتكاثر الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار به فجعل ذلك بأمر الله هباء منثورا، وهذا أقوى دليل على قدرة الله الكاملة مع أن فيها إشارة إلى أن لكل شيء اختتام والماء سبب للحياة الجديدة والحياة الدنيا هي غرور محض فقط. ومثل المنافقين كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق، والسياق يبين بكل صراحة شدة العذاب والإحاطة الكاملة للقادر الوهاب. ثم مثل القرآن الكريم بالذين يدعون غيرالله كباسط كفيه إلى الماء أن يصل إلى فمه والماء لا يستطيع الوصول بهذا الطريق وهكذا دعاء من يدعوا غير الله أن لا يصل إلى استجابة. ولا يستحق أحد يدعى منه، ولايليق بشأن المسلم أن يدعو غير الله، الدعوة الحقه لله فقط.

المطلب الثاني: ماء الرحمة:

إنزال الماء الطاهر من السماء: من مظاهر رحمة الله أنه جعل الماء الذي ينزل من السحب إلى الأرض ماءاً نقياً غير ملوث، حتى يحيي به الأرض، ويشرب منه الناس والحيوانات، والنباتات، والله سبحانه وتعالى هو الولي الوحيد من يتولى أمور الناس وهو عزيز حكيم كما هو معروف أن الأصل في الماء أن يكون سبب

الحياة والبهجة والسرور، وهو سبحانه الذي ينزل المطر من بعد إياس الناس في وقت حاجتهم وفقرهم إليه، والمطر أنفع أنواع الرزق، وأكثرها فائدة ونفعا، ويعم الوجود كله برحمته، ويفيض على أهل ذلك القطر أو الناحية فيضه، وهو المتولي لأمور عباده بالإحسان إليهم، وجلب النفع لهم، ودفع الشر عنهم، وهو المستحق للحمد منهم على إنعامه. ونظير الآية في إنزال المطر بعد اليأس قوله تعالى: {وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ}(61) قال صاحب الكشاف : قرئ قنطوا بفتح النون وكسرها، وإنزال الغيث بعد القنوط أدعى إلى الشكر لأن الفرح بحصول النعمة بعد البلية أتم، فكان إقدام صاحبه على الشكر أكثر وينشر رحمته أي بركات الغيث ومنافعه وما يحصل به من الخصب، وعن عمر رضي الله عنه أنه قيل له «اشتد القحط وقنط الناس فقال: إذن مطروا أراد هذه الآية، ويجوز أن يريد رحمته الواسعة في كل شيء كأنه قيل ينزل الرحمة التي هي الغيث وينشر سائر أنواع الرحمة وهو الولي الحميد الولي الذي يتولى عباده بإحسانه والحميد المحمود على ما يوصل للخلق من أقسام الرحمة،([62]) فلنرى إلى الآيات التي قد نزلت في هذا السياق أو ما يستفاد منها هذا المعنى وما بلاغتها وروعتها.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾([63])

مفهوم الآية:

حينما بين سبحانه وتعالى أن حكمته لا تقتضي أن يبسط رزقه على كل من عباده بين بعد ذلك مباشرة أن مقتضي حكمته أن لا يترك ما يحتاجون إليه أشد احتياجا وإن بلغ أمرهم إلى حد اليأس والقنوط، وهذا مظهر من مظاهر قدرته وحكمته البالغة أنه ينزل الغيث لأن الغيث يسبب الرزق للناس ولأنعامهم، وفيه تذكير لمن يتذكر بهذه النعمة العظيمة التي "([64])

خصها بالذكر هنا دون غيرها من النعم الدنيوية لأنها نعمة لا يختلف الناس فيها لأنها أصل دوام الحياة بإيجاد الغذاء الصالح للناس والدواب،"([65])

61 – الروم: 49.

62 مفاتيح الغيب= التفسير الكبير، لأبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: 606هـ) الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة 1420 هـ، ص: 27/599.

63 الشوري:28.

64 التحرير والتنوير، ص: 25/95.

65 – التحرير والتنوير، ص: 25/95.

كما أنه تعديدُ نِعَمِ اللَّه تعالى التي تدل على توحيد الله وتفريده، وأنه هو المولى المستحق للعبادة دون غيره من الأنداد لأنه هو المتولي لأحوال عباده، لذا قال في تذييل الآية وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ. وقيل: هو من الوالي، وهو الناصر، فأولياءُ اللَّه أنصار دينه، وأشياعُ طاعته، والوليُّ: في- صفة العبد- مَنْ يُوَاظِبُ على طاعة رَبِّه، ومِنْ علاماتِ مَنْ يكونُ الحَقُّ سبحانه وَلِيَّهُ- أنْ يصونه، ويكفِيَهُ في جميع الأحوال، ويُؤَمِّنَهُ، فيغارَ على قلبه أنْ يتعلَّقَ بمخلوقٍ في دفع شَـرٍّ أو جَلْبِ نَفْعٍ بل يكونُ سبحانه هو القائِمَ على قلبه في كُلِّ نَفَسٍ، فيحقِّق آماله عند إشاراته، ويعجِّل مَآرِبَهُ عند خَطَرَاتِهِ، ومن أماراتِ ولايته لِعَبْدِهِ أنْ يُدِيمَ توفيقَهُ حتى لو أرادَ سُوءاً، أو قصد محظوراً- عَصَمَهُ عن ارتكابه، أو لو جنح إلى تقصير في طاعة أبى إلاَّ توفيقاً وتأييداً، وهذا من أماراتِ السعادَةِ، وعَكْسُ هذا مِنْ أماراتِ الشقاوة، ومن أمارات ولايته أيضاً أنْ يرزقه مَوَدَّةً في قُلُوب أوليائه، [66]

التحليل البلاغي:

قوله تعالى: {وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ} قيل: أراد بالرحمة: المطر، وقيل: أراد بالرحمة هنا الشمْسَ، فذلك تعديد نعمة غير الأولى، وذلك أَنَّ المطر إذا أَلَمَّ بعد القنط حَسُنَ موقعُهُ، فإذا دَامَ سُئِمَ، فتجيء الشمْسُ بعده عظيمة الموقع. الواو للعطف على جملة {ولكن ينزل بقدر ما يشاء} في الآية التي قبلها. وصيغة القصر في قوله: وهو الذي ينزل الغيث تفيد قصر القلب لأن في السامعين مشركين يظنون نزول الغيث من تصرف الكواكب وفيهم المسلمون الغافلون، نزلوا منزلة من يظن نزول الغيث منوطا بالأسباب المعتادة لنزول الغيث لأنهم كانوا في الجاهلية يعتقدون أن المطر من تصرف أنواء الكواكب. وفي حديث زيد بن خالد الجهني قال: «خطبنا رسول الله على إثر سماء كانت من الليل فقال: أتدرون ماذا قال ربكم؟ قال، قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا ونوء كذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب» . فهذا القصر بالنسبة للمشركين قصر قلب أصلي وهو بالنسبة للمسلمين قصر قلب تنزيلي. وصيغة المضارع في ينزل لإفادة التكرار من التنزيل وتجديده في صورة التقاطر، أما صيغة الماضي في قوله: من بعد ما قنطوا دليل علي التحقق والتأكد للقنوط والتقرر بمضي زمان عليه." والمراد: من بعد ما قنطوا من الغيث بانقطاع أمارات الغيث المعتادة وضيق الوقت عن الزرع."[67]

66 الجواهر الحسان في تفسير القرآن، المؤلف: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (المتوفى: 875هـ)، المحقق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى - 1418 هـ، ص: 5/160.

67 التحريروالتنوير، ص: 25/95.

والغيث: المطر الآتي بعد الجفاف، سمي غيثا بالمصدر لأن به غيث الناس المضطرين، كما قيل عنه قوله{فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ} في سورة يوسف([68]) . القنوط: اليأس، والنشر: ضد الطي، واستعير هنا للتوسيع والامتداد. والرحمة هنا: رحمته بالماء، وقيل: بالشمس بعد المطر. وضمير من بعد ما قنطوا عائد إلى عباده من قوله: {وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ} ([69]). وقد قيل: إن الآية نزلت بسبب رفع القحط عن قريش بدعوة النبي –صلى الله عليه وسلم– بهم بذلك بعد أن دام عليهم القحط سبع سنين أكلوا فيها الجيف والعظام وهو المشار إليه بقوله في سورة الدخان حيث قال: **{إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ}**([70]) وفي الصحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دعا قريشا كذبوه واستعصوا عليه فقال: اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف. فأتاه أبو سفيان فقال: يا محمد إن قومك قد هلكوا فادع الله أن يكشف عنهم فدعا. ثم قال: تعودون بعد». وقد كان هذا في المدينة ويؤيده ما روي أن هذه الآية نزلت في استسقاء النبي صلى الله عليه وسلم لما سأله الأعرابي وهو في خطبة الجمعة. وفي رواية أن الذي كلمه هو كعب بن مرة وفي بعض الروايات في الصحيح أن النبيء صلى الله عليه وسلم قال: اللهم عليك بقريش اللهم اشدد وطأتك على مضر اللهم اجعلها عليهم سنين كسنين يوسف. وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وأبو جعفر ينزل بفتح النون وتشديد الزاي. وقرأه الباقون بسكون النون وتخفيف الزاي. وذكر صفتي الولي الحميد دون غيرهما لمناسبتهما للإغاثة لأن الولي يحسن إلى مواليه والحميد يعطي ما يحمد عليه. ووصف حميد فعيل بمعنى مفعول. وذكر المهدوي تفسير ينشر رحمته بطلوع الشمس بعد المطر.([71])

{يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ}: عطف عام على خاص، فالغيث خاص، والرحمة عام. {وَمِنْ آياتِهِ الْجَوارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ}([72]): تشبيه مرسل مجمل، حذف منه وجه الشبه، أي كالجبال في الضخامة والعظم. قرئ قنطوا بفتح النون وكسرها، وإنزال الغيث بعد القنوط أدعى إلى الشكر لأن الفرح بحصول النعمة بعد البلية أتم، فكان إقدام صاحبه على الشكر أكثر وينشر رحمته أي بركات الغيث ومنافعه وما يحصل به من الخصب، وعن عمر رضي الله عنه أنه قيل له «اشتد القحط وقنط الناس فقال: إذن مطروا أراد هذه الآية، ويجوز أن يريد رحمته الواسعة في كل شيء كأنه قيل ينزل الرحمة التي هي الغيث وينشر

68 – سورة يوسف: 49.
69 – الشورى: 25.
70 – سورة الدخان 15.
71 التحريروالتنوير، ص: 25/95.
72 – الشوري: 32.

سائر أنواع الرحمة وهو الولي الحميد الولي الذي يتولى عباده بإحسانه والحميد المحمود على ما يوصل للخلق من أقسام الرحمة،([73])

الخلاصة:

في الختام يمكن أن نقول أن الله سبحانه وتعالى وحده ينزل الغيث من السماء وهذه خاصته لا لغيره وكلما ينزل من السماء غيث هو عبارة عن رحمته وليس استحقاق البشر ولا باستحاق أعمالهم. بل رحمة من عنده وذكر الغيث هنا فى هذه الآيات بالتخصيص دلالة على أن الماء سبب الرزق للناس ولأنعامهم وهو الله سبحانه الوحيد من يتولى أمر الناس لا غيره يستحق أن يحمد بل هو الولي الحميد.

73 مفاتيح الغيب ، ص: 27/599.